اضطرارية ؟ هذا دليل على أنكم اتخذتم الاختيـار فى غير محلِّه ؛ لأن الذى يختار ينبغى أنْ يأخذ الاختيار فى كل شىء ، لكن أنْ تختار فى شىء ولا تختار فى شىء آخر ، فهذا لا يجوز .

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ﴾

كثيراً ما يُحدِّثنا القرآن الكريم عن هذه المسألة ويُذكِّرنا بالبدء والإعادة ، لماذا ؟ يهتم القرآن بهذه المسألة ويؤكد عليها لأنها كانت الأساس فى دعوته ؛ لأنهم إنْ كانوا يؤمنون بأنهم يرجعون إلى الله لخافوا من عقابه ؛ لذلك يؤكد لهم فى مواضع كثيرة حتمية الإعادة وأنها حَقٌّ .

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ .. ﴿٢٧﴾ ﴾ [الروم] استُهلَّت الآية بقوله تعالى (وَهُوَ) وفى آية أخرى ﴿ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ .. ﴿١١﴾ ﴾ [الروم] فكأن (هُوَ) مدلولها (الله) وهو كما نعلم ضمير غيبة ، والحق سبحانه غَيْب عن الأنظار ، ومن عظمته سبحانه أنه غيب ، فلو كان مُدْركاً مُحسًّا ما استحق أنْ يكون إلهاً ، وكيف نطمع فى إدراكه سبحانه ونحن لا نستطيع أن ندرك بعض مخلوقاته ؟

فالمعانى التى خلقها الله لتسوس حركة الحياة : كلمة الحق ، العدل ، الحق الذى يقف القضاء كله ليؤيده ويُعلنه ، والعدل الذى يحكم موازين الحياة ؛ ليوازن بين الشهوات وبين الحقائق ، هذه المعانى لا تُدرَك بالحواس ، فهل رأيتم العدل ؟ هل سمعتم العدل ؟ هل شممتم العدل ؟ ... الخ .

إذن : فالمعانى العالية لا يمكن أنْ تُدرك لأنها أرفع من الإدراك ؛ لأن بها يكون الإدراك ، أيكون المخلوق للحق أسمى من أنْ يُدرك ، ويكون الحق سبحانه موضعاً للإدراك ؟

فإذا سمعت (هُوَ) فاعلم أنها لا تنصرف إلا إلى الإله الواحد الذى من عظمته أنه لا يُدرَك ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ .. (١٠٣)﴾ [الأنعام]

لذلك نقرأ فى سورة الإخلاص ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١)﴾ [الإخلاص] فترى أن (الله) لفظ الجلالة ، وهو علَم على واجب الوجود يأتى بعد (هُوَ) فكأن (هُوَ) أدلُّ على وجود الحق سبحانه من لفظ الجلالة (الله) ، فكأنه لا يصح حين يُطلَق ضمير الغيبة (هُوَ) على شىء إلا الله ؛ لأنه لا شىء فى الكون إلا الله .

وقوله تعالى هنا ﴿وَهُوَ الَّذِى يَبْدَأُ الْخَلْقَ.. (٢٧)﴾ [الروم] بالفعل المضارع الدالّ على الاستمرارية ، مع أنه سبحانه بدأ الخَلْق بالفعل : ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (٢٩)﴾ [الأعراف] فإنْ ذكرت الأولى فقد بدأ الخَلْق ، وإن ذكرت الاستمرارية فى الإيجاد فهو يبدأ دائماً ، وفى كل وقت ترى فى خَلْق الله شيئاً جديداً ، فالخَلْق لم يأتِ مرة واحدة ، ثم توقف ، بل بدأ ثم استمر .

ونلحظ أن القرآن يذكر هذه المسألة مرة بالماضى (بَدَأَ) ومرة بالمضارع (يَبْدأ) ؛ لأن الخالق سبحانه بدأ الخلق فعلاً بخَلْق آدم عليه السلام الإنسان الأول : ﴿الَّذِى أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ (٧)﴾ [السجدة] ولا يزال سبحانه بقيوميته خالقاً ، يبدأ كل يوم وكل لحظة خَلْقاً جديداً نشاهده فى الإنسان ، وفى الحيوان ، وفى النبات .. الخ .

وبالخَلْق المتجدِّد للإنسان ، حيث يُولَد كل لحظة مولود جديد نردُّ على الذين يقولون بتناسخ الأرواح - يعنى : أن الروح تخرج من جسد فتحلُّ فى جسد آخر - وهذا يعنى أن تكون المواليد على قدر الوَفيَات ، ويعنى أن يظل العالم على تعداد واحد دون زيادة ، ونحن نرى الآن مدى الكثافة السكانية التى يشكو العالم منها الآن ، وهذه تكفى لهدم هذه النظرية .

والحق سبحانه يُحذِّرنا أن نأخذ قصة بَدْء الخلق من غير الخالق سبحانه ، فمن الناس مضلون سيضلونكم فى هذه المسألة ، فلا تُصْغون إليهم ؛ لأن الله يقول : ﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ ﴾ [الكهف]

وقد رأينا من هؤلاء المضلين مَنْ يقول بأن الإنسان أصله قرد متطور إلى إنسان ، والردُّ على هذه الضلالات يسير ، فإذا كان القرد تطور إلى إنسان ، فلماذا لم تتطور باقى القرود ؟ ولماذا لم يتطور الإنسان منذ أنْ خُلِق آدم وحتى الآن إلى شىء آخر ؟ وكيف نصدق هذه الضلالات ، وربنا سبحانه يقول : ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الذاريات]

ويقول سبحانه : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [يس] فإياك أنْ تقول : إن شيئاً تطور عن شىء ، فكل جنس قائم بذاته منذ خلقه الله .

إذن : احذروا مثل هذه الأقوال ، ولا تأخذوا قصة بَدْء الخَلْق إلا من الله وحده .

كلمة ﴿ يُعِيدُهُ.. ﴿٢٧﴾ ﴾ [الروم] أى : إلى الخَلْق فهى بمعنى يخلقه ، فالمعنى : يبدأ الخلق ثم يميته ثم يُعيده ، البعض يظن أن يعيده يعنى

يبعثه في الآخرة ، لكن الله تعالى يقول : ﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١١)﴾ [الروم] فيعيده غير تُرجعون ، ترجعون أى : فى القيامة .

وقوله ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ.. (٢٧)﴾ [الروم] أى : على حَسْب فهمكم أنتم للأشياء ، وإلا فالله تعالى لا يقال فى حقه هذا سهل وهذا أسهل ، ولا هيِّن وأهون ؛ لأنه سبحانه لا يزاول الأشياء كما نزاولها نحن ، ولا يعالج الأفعال ، إنما يفعل سبحانه بكُنْ فيكون .

ومن ذلك قوله تعالى لزكريا عليه السلام لما تعجب أن يكون له ولد ، وقد بلغ من الكبَر عتياً وامرأته عاقر : ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ .. (٩)﴾ [مريم] ذلك لأن طلاقة القدرة لا تقف عند أسبابكم . وكذلك قال لمريم : ﴿كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ .. (٢١)﴾ [مريم]

فالأمر عجيب فى نظر مريم ، أن تأتى بولد بدون زوج ؛ لكنه ليس عجيباً فى قدرة الله ، فإنْ كانت العادة أنْ يأتى الولد بالأسباب فالله سبحانه هو خالق الأسباب ، يفعل ما يشاء بدونها .

وسبق أن تحدثنا عن طلاقة قدرة الله فى قصة إبراهيم عليه السلام حينما أراد القوم أنْ يحرقوه ، فلو كانت المسألة مسألة نجاة إبراهيم من النار ما مكّنهم الله من الإمساك به ، أو : حتى إنْ أمسكوه وألقَوْه فى النار كان بالإمكان أنْ يُنزل الله على النار مطراً فتنطفىء .

لكن الحق سبحانه يريد أن يسدَّ على الكافرين منافذ الحجَاج ، ويبطل كفرهم ، فهاهم قد ظفروا به وألقَوْه فى قَعْر النار ، وهى على حال الاشتعال والإحراق ، لكنهم غفلوا عن شىء هام ، هو أن الله تعالى ربُّ هذه النار وخالقها وخالق قوة الإحراق فيها ، وهو وحده

القادر على أنْ يسلبها هذه الخاصية ، فيلقى فيها نبيه إبراهيم دون أن يحترق . وهنا تكمن العظمة وتظهر الحجة ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (٦٩)﴾ [الأنبياء]

ونلحظ فصاحة الأداء في ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ.. (٢٧)﴾ [الروم] فهو أسلوب قَصْر ، حيث قدّم المتعلق الذي حقُّه أن يكون مؤخراً ، كما في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ .. (٥)﴾ [الفاتحة] فقدّم المفعول ، ومن حق المفعول أن يُؤخّر عن الفعل والفاعل ، وقدَّمه هنا ، لنقصر العبادة على الله وحده دون سواه ، وحتى لا نعطف على الله تعالى شيئاً ، فلو قلت نعبدك لجاز أن تقول : ونعبد غيرك . كذلك هنا ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ.. (٢٧)﴾ [الروم] أفادت تخصيص الخلق لله وحده دون أن نعطف عليه أحداً .

وقوله تعالى ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ.. (٢٧)﴾ [الروم] الحقيقة ليس في الأمور بالنسبة لله تعالى هيِّن وأهون ، إنما في عُرْفنا نحن ، وليُقرِّب لنا الحق سبحانه فَهْم المسائل ، وإلا فالحق سبحانه لا يعالج الأمور ولا يزاولها كما نعالجها نحن ، وإنما يفعل سبحانه بكُنْ فيكون .

لذلك لما نتأمل قَوْل مريم عليها السلام لما بشَّرتها الملائكة بالمسيح قالت : ﴿رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ .. (٤٧)﴾ [آل عمران] فكيف فهمتْ مريم هذه المسألة ، ومَنْ أخبرها بأن الولد سيكون دون أن يمسَّها بشر ؟

لقد فهمت مريم هذا من قول الملائكة ﴿إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ .. (٤٥)﴾ [آل عمران] . فلو كان له أبٌ لذكرته الملائكة ، وما داموا قد نسبوه إلى أمه فلا أب له .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. (٢٧) ﴾ [الروم] له المثل الأعلى يعنى : أن الله تعالى لا مثيلَ له ، فإنْ شابهه سبحانه شىء من خَلْقه فى صفة من الصفات فخُذْها فى إطار التقريب للمعنى ، وفى إطار ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .. (١١) ﴾ [الشورى] فلك وجود ولله تعالى وجود ، لكن وجودك ليس كوجود الله ، أنت حَيٌّ والله حَيٌّ ، لكن حياتك ليست كحياته عز وجل .. وهكذا .

وقوله ﴿ الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ .. (٢٧) ﴾ [الروم] نقول : عَالٍ وأعلى ، فهى أفعل تفضيل بمعنى : الذى لا يُشابه ولا يُضاهى ؛ لذلكَ يقول سبحانه ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .. (١١) ﴾ [الشورى] فينفى أن يوجد شبيه لمثل الله لا شبيه لله ؛ لأن الكاف هنا بمعنى : مثل . فكأنك قلت : ليس مِثْل مِثْله شىء .

وطريقة العرب فى الأداء فى مسألة المشابهة يقولون : زيد مثل الأسد فى الشجاعة ، فأنت تريد أن تعطينى صورة لشجاعة زيد ، فذكرت أوضح شىء لهذه الصفة وهو الأسد ، فهو مُشبَّه به .

إذن : فالأسد أقوى من زيد فى هذه الصفة ، وإلا لما جعلتَ المشبَّه به توضيحاً لما لا تعلم .

فحين تقول ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .. (١١) ﴾ [الشورى] تعنى : إنْ وُجد مِثْل لله لا يوجد مثل لهذا المِثْل ، فنفيتَ المِثْل من باب أوْلَى ؛ لأن الأضعف وهو المثل المشبه أضعف من المشبه به ، فإذا كان المثل أضعف من الممثَّل ولا يوجد مثل للأضعف ، فكيف يوجد مثل للأقوى ؟

وانظر إلى جمال الحق سبحانه حين يُجلِّى للخَلْق مثَلاً فى دنياهم ، ويجعل من ذاته - سبحانه وتعالى - المماثلة ، يقول تعالى ليُقرِّب لأفهامنا كيفية نوره : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ

كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ .. (٣٥) ﴾ [النور]

فالله ـ سبحانه وتعالى ـ يضرب المثل لنوره بالمشكاة ، السطحيون يظنون أن المشكاة هى المصباح ، لكن الله يقول ﴿ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ .. (٣٥) ﴾ [النور] والمشكاة تجويف فى الحائط ، مثل الطاقة غير نافذة ، فإنْ كانت نافذة نسميها شباكاً ، وكانوا فى الماضى يضعون المصباح فى هذه الفجوة ليضىء الحجرة ، والفجوة هذه أو المشكاة تجمع الضوء وتُقوِّيه ؛ لذلك يكون الضوء فيها أقوى من ضوء الحجرة ، أو : أن المصباح يستوعب المشكاة أكثر من استيعابه للحجرة كلها .

وبتأمل هذا المعنى نرى أن الحق سبحانه لا يضرب لنا مثَلاً لنوره إنما لتنويره ، فتنوير الله تعالى مثَل المشكاة التى فيها المصباح ، والمصباح يدلُّ على الرقى فى وسائل الإضاءة ، فدونه مثلاً الشعلة ، وهو فتيل يُوقَد فى الهواء ويكون له دخان أسود ، أما المصباح فله زجاجة تحجز عنه الهواء إلا بقدر ما يكفى لاحتراق الفتيل ، فيأتى الضوء منه صافياً .

ثم هو فضلاً عن ذلك فى زجاجة ليست عادية ، إنما ﴿ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ .. (٣٥) ﴾ [النور] أى : مثل الدرة التى تضىء بذاتها . هذا المصباح يُوقَد من شجرة زيتونة معتدلة المزاج ﴿ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ .. (٣٥) ﴾ [النور] فتصوَّر هذا المصباح فى مكان ضيق لا فى الحجرة كلها ، إنما فى المشكاة كيف يكون ضوؤه ؟

كذلك تنوير الله ـ سبحانه وتعالى ـ للسماوات وللأرض على سعتهما ، فنوره تعالى يستوعبهما ، لا يترك منهما مكاناً مظلماً كالطاقة بالنسبة لهذا المصباح الذى وصفنا .

ولهذا المثل قصة شهيرة فى الأدب العربى ، فقد فطن إليها أبو تمام[1] فى مدحه أحد الخلفاء ، وحين أراد أنْ يجمع له ملَكات العرب ومواهبهم من الجود والشجاعة والحلْم والذكاء ، قال مادحاً :

إقْدَامُ عَمْروٍ فى سَمَاحَةِ حَاتمٍ وفى حِلْمِ أَحْنفَ فى ذَكاءِ إيَاسِ

وقد اشتهر عمرو بن معدى كرب بالشجاعة والإقدام ، واشتهر حاتم الطائى بالكرم ، وأحنف بن قيس بالحلم حتى قيل « أحلم العرب » فلا يُغضبه شىء أبداً ، ولا يُخرجه عن حلْمه ، حتى أن جماعة قصدوا أنْ يُخرجوه عن حلْمه ، فتكون سابقة لهم فتبعوه فى الطريق ، وأخذوا يهزءون به وهو يضحك ، حتى قارب من الحى ، فنظر إلى هؤلاء الفتية وقال : أيها الفتية ، لقد قربنا من الحىِّ ، فإنْ كان فى جوفكم استهزاء بى فافرغوا منه ؛ لأنهم لو ظفروا بكم لقتلوكم .

أما إياس بن معاوية فكان مَضْرب المثَل فى الذكاء ، وهكذا جمع أبو تمام لممدوحه خلاصة ما تعرفه العرب من مواهب . وهنا قام له واحد من خصومه وقال : أتُشبِّه الخليفة بأجلاف العرب ، فمَنْ يكون هؤلاء إذا ما قُورِنوا بأمير المؤمنين ؟

وهذا الاعتراض مأخوذ من قول الشاعر :

وشَبَّهه المدَّاحُ فى البَأْسِ والنَّدَى بمَنْ لَوْ رآهُ كانَ أصْغر خَادمِ

فَفِى جيشه خَمسُونَ ألفاً كَعنترٍ وأمْضَى وفى خُدَّامه ألفُ حاتمِ

فلما قيل لأبى تمام : كيف تشبه الخليفة بأجلاف العرب أحجم هنيهة ثم رفع رأسه ، وقال :

(١) هو : حبيب بن أوس بن طىء . قال أبو الفرج الأصفهانى فى الأغانى (ص ١٧٣٨) : « شاعر لطيف الفطنة ، دقيق المعانى ، سلك فى البديع والمطابقة مسلكاً لم يسبقه من تقدَّمه إليه ، وإن كانوا هم الذين فتحوه له » .

لاَ تُنكروا ضَرْبِي لَهُ مَنْ دُونَهُ ... مثَلاً شَرُوداً في النَّدَى والبَاس

فاللهُ قد ضَرَبَ الأقلَّ لِنُـوره ... مَثَلاً من المشْكَاةِ والنِّبراس[1]

ومع دقَّة الاستشهاد وطرافته إلا أن خصومه اتهموه بأن ذلك ليس ارتجالاً لوقته ، إنما هو مُعدٌّ لهذا الموقف سلفاً ، وبعض الدارسين للأدب يقول بذلك وقاله لنا مدرس الأدب ، لكن يُروَى أنهم لما أخذوا الورقة التي مع أبي تمام لم يجدوا فيها هذه الأبيات ، ثم على فرض أن الرجل أعدَّها قبل هذا الموقف فإنها تُحسَب له لا عليه ، وتضيف إليه ذكاءً آخر ؛ لأنه استدرك على ما يمكن أنْ يُقال فاستعد له .

وكما أن الحق سبحانه وتعالى له المثَل الأعلى في الأرض ، فلا مثيلَ له ، كذلك له المثل الأعلى في السماء فلا مثيلَ له ، مع أن ما في السماء غيب ، وهم الملائكة من صفاتهم كذا وكذا ، فلله المثَل الأعلى في السماوات .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٧) ﴾ [الروم] أي : أنه سبحانه وتعالى بذاته عزيز لا يُغلب ، ومع عزته سبحانه حكيم لا يظلم .

ثم يقول الحق سبحانه[2] :

---

(١) النبراس : المصباح والسراج . وهو ثلاثي مشتق من البرس الذي هو القطن . قال ابن سيده : وإنما قضينا بزيادة النون لأن بعضهم ذهب إلى أن اشتقاقه من البرس الذي هو القطن ، إذ الفتيلة في الأغلب إنما تكون من قطن . [لسان العرب - مادة : برس] .

(٢) سبب نزول الآية : عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان يلبي أهل الشرك : لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك ، تملكه وما ملك . فأنزل الله ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلاً مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ .. (٢٨) ﴾ [الروم] أورده السيوطي في الدر المنثور (٦/٤٩٢) وعزاه للطبراني وابن مردويه .

﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٨) ﴾

ضَرْب المثل أسلوب من أساليب القرآن للبيان وللتوضيح وتقريب المسائل إلى الأفهام ، ففي موضع آخر يقول سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا .. (٢٦) ﴾ [البقرة]

وقال سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ .. (٧٣) ﴾ [الحج] فهذا كثير فى كتاب الله ، والمثل يُضرب ليُجلِّى حقيقة . والضَّرْب هنا لا يعنى إحداث أثر ضار بالمضروب ، إنما إحداث أثر نافع إيجابى كما فى قوله تعالى : ﴿ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ .. (٢٠) ﴾ [المزمل]

وقولنا فى مسألة سكِّ العملة : ضُرِبَ فى كذا ، فكأن الضرب يُحدث فى المضروب أثراً باقياً ، ففى الأرض بإثارة دفائنها واستخراج كنوزها ، وفى العملة بتَرْك أثر بارز لا تمحوه الأيدى فى حركة التداول ، وكأن ضَرْب المثل يوضح الشيء الغامض توضيحاً بيِّناً كما تُسَكّ العملة ، ويجعل الفكرة فى الذهن قائمة واضحة المعالم . وللضرب عناصر ثلاثة : الضارب ، والمضروب ، والمضروب به .

ويُروى فى مجال الأمثال أن رجلاً خرج للصيد معه آلاته : الكنانة وهى جُعْبة السهام ، والسهام ، والقوس ، فلما رأى ظبياً أخذ يُعِدّ كنانته وقَوْسه للرمى لكن لم يمهله الظبى وفرَّ هارباً ، فقال له آخر